الفصل الثالث

دور الدين فى التوجه السياسى للدولة العثمانية

عبدالمنعم إبراهيم الجميعى

اتخذت الدولة العثمانية من الدين الإسلامى غطاء لتوجهاتها السياسية لدرجة يمكن معها القول أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات يعد فى الواقع إحدى الحلقات الهامة من تاريخ المسلمين. ونظراً لأن الوطنية حتى بدايات القرن الماضى كانت مرتبطة بالدين فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت على أنها دولة مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم كما يتردد ذلك من بعض الباحثين فى الوقت الحالى، خاصة وأن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأثيراً فى نفوس رعايا الدولة من العاطفة القومية، وبهذه الواجهة الشرعية فرض الأتراك أنفسهم على العرب، واعتبرهم العرب أصحاب أياد بيضاء فى رفع شأن الإسلام فى أوروبا ونشره فى العديد من البلدان لدرجة أن الأفراح والزينات كانت تقام فى العديد من العواصم الإسلامية عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون، وكان المسلمون فى شتى البلدان يعتبرون السلطان العثمانى خليفة رسول الله[1]، والأب الروحى للمسلمين الذى يجب عليهم طاعته، وأن المحافظة على الدولة العثمانية يعد ثالث العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله. ونتيجة لذلك أطلق السكان العرب على القوات العثمانية المرابطة فى بلادهم اسم الحامية العثمانية ولم يطلقوا عليها جيش الاحتلال العثمانى، كما أن أحد المفكرين المسلمين وهو الشيخ محمد عبده وصفها بأنها الحافظة لسلطان الدين، وأن المحافظة عليها يعد ثالث العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله[2].

وفى ظل هذا الشعور وجهت الدولة العثمانية سياستها، فنظر العثمانيون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شئ لدرجة قال عنها المؤرخ المصرى عبدالرحمن الجبرتى أنهم اهتموا "بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك فى الأحكام

---

(١) حول انتقال الخلافة إلى آل عثمان انظر:
محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ - ١٩١٤، ص١٢.
(٢) محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جـ١، ص٩٠٩.

والوقائع بالقوانين والشرائع"[1].

وإلى جانب ذلك نظرت أوروبا إلى توسعاتهم على أنها فتوح إسلامية[2]. وحتى تتضح الصورة ينبغى أن نقسم أدوار الحكم العثمانى إلى مرحلتين أساسيتين: **مرحلة القوة** وهى المرحلة التى شيد فيها العثمانيون دولتهم فى ظل روح الجهاد الدينى التى كانت غالبة عليهم والتى مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوروبا وأفريقية. **ومرحلة الضعف** التى تميزت بالتخبط السياسى وبالهزائم العسكرية المتلاحقة والتى استمرت حتى سقوط الخلافة.

وبالنسبة للمرحلة الأولى فقد كان ولاء الدولة العثمانية يتجه ناحية الدين الإسلامى شكلاً ومظهراً، فاهتم السلاطين بإضفاء الألقاب الدينية بجانب أسمائهم مثل لقب حامى حمى الحرمين الشريفين، ولقب خليفة، كما حرصوا على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً[3] وأخضعوا رعاياهم غير المسلمين لنظام الملل[4]. وكان الدين والدولة عندهم شيئاً واحداً، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان لسياستهم. وكان الطابع الدينى الإسلامى بمثابة السمة الواضحة فى تشريعات الدولة وفتوحاتها، ويؤكد ذلك "قانون نامة" الذى وضعه السلطان سليمان القانونى، والذى التزم بمبادئ الشريعة الإسلامية، كما يؤكده ما كان للهيئة الإسلامية من مركز مرموق فكان يطلق على رئيسها المفتى أو مفتى استانبول ثم أطلق عليه بعد ذلك شيخ الإسلام، وكان المفتى يصدر فتوى تجيز الحرب التى خاضتها الدولة دفاعاً أو هجوماً وعقد الصلح[5].

ومن هنا فتح العثمانيون باسم الإسلام العديد من الأمصار التى لم تطأها قدم مسلم من قبل[6] فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده فى نشر الإسلام فى مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامى المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له، وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل

---

(١) عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ١، ص٢١.
(٢) للتفاصيل انظر:
Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, London, 1968.
(٣) أكد ذلك قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان القانونى.
(٤) نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً يقوم على أساس الدين وكان يطلق على كل مذهب دينى ملة.
(٥) د. عبدالعزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص٧٤.
(٦) ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٤، المجلد السادس، ص١٠٩.

عثمان من دخول البلقان، وتحقيق العديد من الانتصارات التى توجت بفتح مدينة "أدرنة" سنة ١٣١٦م[١] وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التى عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى أوروبا[٢].

وباسم الإسلام استولى الجيش العثمانى على العديد من مدن شرق أوروبا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التى تم الاستيلاء عليها فى عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م[٣].

وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية فى البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات العثمانيين، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثمانى[٤]. وباسم الإسلام فتح محمد الثانى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقاً للحديث الشريف "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"[٥] "ذلك الفتح الذى يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط فى تاريخ العثمانيين[٦] بل وفى تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام، فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسماً إسلامياً جديداً وهو إسلامبول[٧] بمعنى عاصمة الإسلام، وبنى محمد الفاتح مسجداً كبيراً يحمل اسمه، كما بنى عشرة مساجد أخرى[٨]. ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء، ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية فى الأناضول، وتحويل آسيا الصغرى كلها إلى مناطق عثمانية.

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسماً أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح

---

(١) أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، جـ٢، ١٨٧.
(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ص٤٨-٥٠.
(٣) عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون، ١٥١٦-١٩١٦م، ص٣٤.
(٤) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ص٤٢٧-٤٢٨.
(٥) ورد فى مسند أحمد، وفى مستدرك الحاكم (حديث صحيح) وانظر أيضاً جلال الدين السيوطى: الجامع فى أحاديث البشير النذير، المجلد الثانى، ص٤٠٢، رقم ٧٢٢٧.
(٦) سيد مصطفى: الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر، ص١١.
(٧) حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والآستانة.
(٨) منها مسجد "أبو أيوب الأنصارى" انظر دليل الآستانة، ص٣.

كنيسة الباباوية فى روما مما أزعج العالم المسيحى كله الذى لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم فى عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م.

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامى فى السياسة العامة للدولة العثمانية بدءاً بالمراسيم التى كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة فى موكب رسمى يتجه إلى مسجد أبى أيوب الأنصارى، ويتسلم فى جو دينى سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول[١].

وباسم الإسلام تردد فى القوانين العامة التى أصدرها السلاطين، وفى مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبنى لأحكامها[٢].

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانونى على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فبينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون فى فتوحاتهم الأوروبية[٣].

وباسم الإسلام قدم السلطان العثمانى أبو يزيد الثانى ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكى قانصوه الغورى بعد تحطيم أسطوله فى موقعة ديو البحرية فأمده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذاً للأماكن الإسلامية المقدسة[٤]، كما انضم إلى الأسطول المملوكى بعض البحارة والضباط من الأسطول العثمانى للوقوف معاً ضد البرتغاليين[٥].

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبى الذى كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولا إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة، فقامت الدولة العثمانية بوضع

---

(١) كارل بروكلمان: الأتراك العثمانيون وحضارتهم.
(٢) أحمد فهد الشوابكة: حركة الجامعة الإسلامية، ص١٤.
(٣) أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، ص٢٥٥.
(٤) ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الزهور، جـ٤، ص ص٢٠١-٢٠٣.
(٥) محمد عبدالمنعم الرافد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، ص ص١٢٣-١٢٥.

خطة جديدة تمثلت فى اتخاذ الموانى اليمنية – خصوصاً عدن – خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية فى الهند، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالى بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ، وتحطيم كل المحاولات التى بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية فى البحر الأحمر وشرقى أفريقية[١].

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامى فى إطار سياسى واحد، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها فى عام ٦٥٦هـ على يد المغول[٢]، وأصبحت رابطة الدين هى الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية.

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز – وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة – حيث به قبلة المسلمين، مهبط الرسالة، ومنزل الوحى، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين، كما أضاف لهذه المهمة أيضاً خراج اليونان مما أضفى على بلاد الحجاز مركزاً دينياً مرموقاً، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والإشراف عليها، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماماً خاصاً فاهتمت بالطرق، وحفرت الآبار على طول طرق الحج، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التى كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة فى مواعيد محددة[٣].

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالى الخليج العربى الذين طلبوا منها المعاونة فى عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالى على بلادهم، فبعث السلطان سليمان القانونى بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربى لمعاونة إخوانه فى الإسلام، وسار على نهجه بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين[٤].

---

(١) الشناوى: المرجع السابق، جـ١، ص٢١.
(٢) رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، ص٣١.
(٣) مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية: قدسية الحرمين الشريفين، مقال للدكتور الصفصافى المرسى تحت عنوان "قوافل الحج فى الدولة العثمانية" ص٦٣-٦٤.
(٤) نوال الصيرفى: النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى، ص١٤٤-١٤٥.

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها فى أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز للمماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصاً بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن النصرانية، ولم يسمح لها بتسيير سفنها فى القسم الشمالى من البحر الأحمر، أو بالإبحار فى هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبى الحديدة فى اليمن، وكانت ذريعتها فى ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية فى العالم على الإطلاق تقع فى الحجاز، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية[١]، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر[٢] ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت فى وجه الزحف الصليبى البرتغالى للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة، وكانت الملجأ للعالم الإسلامى وقت الملمات.

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالى أفريقيا فى الصراع الصليبى مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية، فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد فى شمالى أفريقيا وأمر بتكوين كتائب المجاهدين[٣] حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك.

وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالى طرابلس فى مقاومة الخطر الصليبى على بلادهم، بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانونى يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها[٤] وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامى لبلادهم. وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية[٥] حتى استقرت الأمور هناك.

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس[٦] ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان فى حوض

---

(١) الشناوى: المرجع السابق، جـ٤، ص ص٦٩٨-٦٩٩.
(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربى، ص١٢٨.
(٣) عبدالكريم رافق: المرجع السابق، ص ص٧٦-٧٧.
(٤) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص ص٩٢٨-٩٢٩.
(٥) المجلة التاريخية للمصرية: المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعيدونى تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر" ص ص١٤٩-١٥٠.
(٦) ول ديورانت: المرجع السابق، جـ٤، المجلد السادس، ص١٢٧.

البحر المتوسط الغربى[١].

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق، ونشر المذهب الشيعى فى الأناضول، وراحوا يحملون الناس قسراً على الدخول فى مذهبهم، ولا يترددون فى إفناء مدن بأسرها، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحداناً حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم، ويتمسكون بالمذهب السنى[٢].

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثمانى سليم الأول بغزو فاس والالتقاء مع الصفويين بوادى جالديران[٣] فى أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين فى جالديران ودخول عاصمتهم تبريز[٤] فى ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتى ديار بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعى فى الأناضول[٥] والعمل على انحساره فى العراق، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السنى من خطر الزحف الشيعى الذى كان الشاه إسماعيل الصفوى يأمل فى نشره فى كافة أنحاء المشرق العربى والقضاء على المذهب السنى. ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعاً عن العراق الذى كان الفرس يتطلعون إليه دائماً، ويرغبون فى صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف[٦] وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد[٧] فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعى فى فارس، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت سيطرتهم[٨]، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامى بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية، والحماة التقليديين للمذهب السنى.

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراساً لدولة الإسلام، وقد دفعهم ذلك إلى

---

(١) رأفت الشيخ: المرجع السابق، ص ص٣٢-٣٣.
(٢) أحمد الساداتى: المرجع السابق، ص١٥٢.
(٣) يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بأذربيجان.
(٤) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص٩٦٤.
(٥) مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفاً من الشيعة. انظر محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٨٩.
(٦) عبدالعزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص٥.
(٧) الساداتى: المرجع السابق، ص٢٥٥.
(٨) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص٩٦٥.

الاحتفاظ بحاميات الأقاليم العربية التابعة لهم، وإذا كان الجندى العثمانى لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالى فإن طول إقامة الحاميات العثمانية فى عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة، وخاصة فى شمالى أفريقيا كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة[١].

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادى المقدس طوى الذى كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: "وكلم الله موسى تكليماً"[٢]، وقال أيضاً: "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه"[٣].

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الإنجليز وسيطروا على مصر فى عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع[٤] هناك.

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فى المعركة التى دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية، والتى قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها[٥].

وباسم الإسلام قام السلطان عبدالحميد الثانى بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصاً وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينياً، حيث كانوا مكلفين شرعاً بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين، ونائب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا[٦]. ومن هنا رأى السلطان عبدالحميد الثانى استخدام هذا الولاء فى حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التى تحيط بها، وإنقاذها من حالة التفسخ والركود الذى تغلغل بين أفرادها، فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم.

وباسم الإسلام قام السلطان عبدالحميد الثانى بإنشاء سكة حديد الحجاز الذى

---

(١) جلال يحي: المغرب الكبير، جـ٣، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ص٧٠٠.
(٢) النساء: الآية ١٦٤.
(٣) الأعراف: الآية ١٤٣.
(٤) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص٩٦٦.
(٥) توينبى: المرجع السابق، جـ٢، ص١٨٩.
(٦) محمد شفيق غربال: تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، جـ١، ص٢٠.

يصل دمشق بالمدينة المنورة. وبذلك شهدت الأراضى الإسلامية المقدسة لأول مرة فى التاريخ "خطاً حديدياً" يخدم حجيج بيت الله الحرام، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبدالحميد للمسلمين[١].

وباسم الإسلام وقف السلطان عبدالحميد الثانى ضد استيطان اليهود فى فلسطين، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية فى نظير السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين[٢] رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى، لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم"[٣].

ولإحساس السلطان عبدالحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية فى بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالى مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق، كما عين محمد شريف رؤوف باشا المشهور بشدته متصرفاً على القدس[٤]. يضاف إلى ذلك أن للدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة فى اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده فى بعض الأحيان[٥].

كل ذلك جعل العالم الإسلامى ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين، وأن زعامتهم للعالم الإسلامى أدى إلى إعلاء شأن الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن المسلمين.

هذا عن المرحلة الأولى

أما بالنسبة للمرحلة الثانية وهى فترة ضعف الدولة العثمانية ومحاولاتها استغلال الوازع الدينى فى نفوس المسلمين لصالح سياستها فقد استغل الأتراك الخلافة كواجهة شرعية وحاولوا باسم الدين فرض هيمنتهم ومصالحهم وفيما يلى نضرب بعض الأمثلة على ذلك:

١-استغلال السلطان العثمانى لتأثيره الدينى فى إضعاف صورة محمد على أمام

---

(١) الشناوى: المرجع السابق، جـ٣، ص ص١٣٢٥-١٣٢٦.
(٢) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص٩٨٨.
(٣) عبدالحميد الثانى: مذكراتى السياسية، ص٢٤ وما بعدها.
(٤) سيد مصطفى: المصدر السابق، ص١٠.
(٥) الشناوى: المرجع السابق، جـ٢، ص ص٩٧٥-٩٧٩.

المسلمين أثناء حروب الشام، فبعد نجاح قوات محمد على فى اقتحام أسوار عكا أعلن السلطان خيانة محمد على للدولة، ومروقه عن الدين، كما قام بتجريده من منصبه وإباحة دمه مما جعل بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد على ويتهمونه بالخروج على طاعة السلطان، كما استصدر عبدالله باشا والى عكا من العلماء ورجال الدين فتوى تتضمن أن من يمت من عساكر محمد على مصيره النار، ومن يمت من عساكره مصيره الجنة. وقد استند علماء عكا فى إصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد على وإبراهيم قد خانا الدولة، ومرقا عن دين الله[١].

٢-استغلال الدول الأوروبية خصوصاً إنجلترا وفرنسا ضعف الدولة العثمانية ومدى تأثير السلطان الدينى فى نفوس المصريين فأوعزت إلى السلطان العثمانى بعزل الخديو إسماعيل بعد أن رفض النزول عن العرش وفقاً لمشيئة الإنجليز، ووافق السلطان على طلبهم، وبذلك انتهى حكم إسماعيل، وتولى توفيق الحكم مكانه فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩[٢].

٣-استغلت إنجلترا التأثير الدينى للسلطان العثمانى فى نفوس المصريين، ونجحت فى إجباره على إصدار منشور بعصيان عرابى[٣] أثناء ثورته مما كان له أسوأ الأثر فى النفوس، وتسبب فى قلب ميزان الحماس الشعبى وأضاع التأييد الإسلامى والعربى للثورة العرابية خاصة وأن عرابى كان يعتمد فى حربه ضد الإنجليز على أنه يدافع عن حقوق السلطان، وقد استغلت إنجلترا هذا المنشور فى إضعاف الروح المعنوية لدى العثمانيين فبادرت القوات الإنجليزية بإذاعة إعلان السلطان بعصيان عرابى أثناء زحفها على مصر مما أضعف من مركزه، وأدى إلى تغيير ميزان المعركة فى غير صالحه[٤].

٤-فى مواجهة التدخل الأجنبى فى شئون العالم الإسلامى وإزاء الموقف المتدهور الذى عانى فيه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها تبنى السلطان

---

(١) محافظ عابدين. محفظة ٢٣٥ صورة المرفق العربى للوثيقة ١٤٠.
(٢) جورج يانج: تاريخ مصر فى عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، ص٥٦٨.
(٣) نشر هذا المنشور فى جريدة الجوائب. انظر: العدد ١١٠٥ فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢. للتفاصيل انظر: ملف ثابت باشا نقطة ١٦٤، وأيضا محمد مهدى كركوكى: رحلة مصر والسودان ص ٨٨٢.
(٤) لتفاصيل ذلك انظر: عبدالمنعم الجميعى: الثورة العرابية بحوث ودراسات، ص ص٨٩-٩٠.

عبدالحميد فكرة الجامعة الإسلامية التى نادى بها نامق كمال[1]، وجمال الدين الأفغانى[2] بهدف جمع شمل البلاد الإسلامية فى مشارق الأرض وفى مغاربها، كما قرب العرب إليه وعمل على جمع كلمة رعاياه حول هدف واحد هو الإسلام[3].

٥-رغبة السلطان العثمانى فى جذب قلوب المسلمين، وبأن يظهر أمام العالم الإسلامى بمظهر الخليفة القائم برعاية مصالحهم، فدعا إلى مشروع دينى تم تغليفه بإطار سياسى وهو إنشاء سكة حديد الحجاز والذى كان هدفه الدينى إيجاد وسيلة سفر أكثر أماناً لحجاج بيت الله الحرام، بينما كان هدفه السياسى إحكام قبضة القوات العثمانية على الحجاز عن طريق إمدادها بالنجدات العسكرية للقضاء على الاضطرابات هناك فى أقصر وقت.

وعلى الرغم من أن الاتحاديين ابتعدوا عن الخط الإسلامى إلى حد كبير، فإنهم ظلوا فى بعض الأحيان يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتغاء الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية، واستثارة عاطفتهم الدينية، فقد تمسحوا بحركة الجامعة الإسلامية خلال الحرب العثمانية الإيطالية ١٩١١ أثناء هجوم القوات الإيطالية على طرابلس بهدف تأليب الولايات الإسلامية ضد إيطاليا كما تمسحوا بها خلال الحرب العالمية الأولى فاستصدروا ثلاث فتاوى من الخليفة، ومن شيخ الإسلام، ومن كبار علماء الدين قالوا فيها أن الحرب التى تخوضها الدولة إنما هى حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين والدفاع عن الدولة، وأنه ينبغى على المسلمين الوقوف بجانب مقر الخلافة، ودرع الإسلام وأن الجهاد الدينى فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر[4] ولاستثارة الشعور الدينى لدى المسلمين صدرت فتوى من شيخ الإسلام فى استنبول، ثم لحقت بها فتوى أصدرها السلطان محمد رشاد الخامس بصفته خليفة ثم أعقبتها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء ذى المناصب الدينية

---

(١) نادى نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨) بأن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة لحماية العالم الإسلامى بصفتها أعظم الدول الإسلامية مكانة، وبها مقر الخلافة وذلك عن طريق قيام وحدة إسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية.
للشناوى: مرجع سابق، جـ٣، ص١١٨٣.

(٢) دعا الأفغانى إلى قيام وحدة بين الدول الإسلامية وتخليص المسلمين من شرور الدول الاستعمارية عن طريق توحيد صفوفهم والالتفاف حول الخلافة.

(٣) محمد فريد: المرجع السابق، ص٧٤٦.

(٤) الشناوى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٢٢٦.

الكبرى[1] لدعوة جميع المسلمين إلى الجهاد والاشتراك فى الدفاع عن الإسلام[2]، كما صدرت الأوامر إلى أئمة المساجد فى بلاد الشام بأن تتضمن خطبهم الدعوة إلى الجهاد ضد بريطانيا وحليفاتها أعداء الدين والملة، وإلى جانب ذلك فقد تمسح رجال الاتحاد والترقى بالإسلام خلال حملة جمال باشا على قناة السويس فى فبراير ١٩١٥ فأطلقوا على هذه الحملة "الخطة الحربية الإسلامية" بدلاً من أن يطلقوا عليها الخطة الحربية العثمانية[3] والواقع أن الاحتلال العثمانى للوطن العربى، كان احتلالاً مقنعاً باسم الدين، وأنهم اتخذوا من الوشيجة الدينية التى كانت تربط المسلمين ستاراً لتنفيذ أغراضهم السياسية.

وظلت الأمور على هذا المنوال حتى قام كمال أتاتورك باتخاذ الإجراءات التى باعدت بين الدولة والإسلام والتى كان من أبرزها الفصل بين السلطنة والخلافة فى أول نوفمبر ١٩٢٢، وأعقب ذلك إلغاء منصب شيخ الإسلام ثم إلغاء الخلافة فى الثالث من مارس ١٩٢٤.

---

(١) انظر جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص٢٢٢.
(٢) الشناوى: المرجع السابق، جـ١، ص ٧٦.
(٣) الشناوى: المرجع السابق، جـ٣، ص١٣١٧.

Obeikan.com

الوثائق

موضوع الوثيقة: فتوى فحواها أن من يمت من عساكر عكا يدخل الجنة ومن يموت من عساكر محمد على يدخل النار.

تاريخها: بدون.

مصدرها: محافظ عابدين. محفظة رقم٢٣٥ صورة المرفق العربى للوثيقة ١٤٠.

"ما قول الأعلام عفى عنهم الملك السلام.

فى خارجى خرج عن طاعة الإمام السلطان الأعظم وجمع له أقواماً كثيرة وخرج من موضعه يريد سبى أبناء الإسلام وسفك دمائهم واستباحة أموالهم وأعراضهم وجهز عدة الحرب والقتال للإسلام، وصدر الأمر المملوكى الخاقانى بالنفير العام لرده وزجره وردعه عما هو عليه فهل يجب على الخاص والعام من كافة ديار الإسلام قتاله ورده وردعه عما هو عليه قاصد له، وهل إذا هلك أحد منهم يكون إلى النار وإذا مات أحد من أبناء الإسلام الرادين له فى الجهاد يكون شهيداً ومثواه دار النعيم أفيدو بالجواب ولكم الأجر والثواب من الملك الوهاب.

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبى بعده.

حيث الحال كما هو مقرر فى السؤال، وصدر الأمر المملوكى بالنفير العام لقتال هذا الباغى الخارج عن طاعة الإمام يجب على كل مسلم قتاله ومن كان موافقاً له فيما قصدوا إن مات أحد من المجاهدين يكون فى الجنة ولا كلام وإذا هلك أحد منهم وممن وافقه على ما يريد فى النار دار الجحيم والله أعلم".

الفقير إليه عز شأنه

الشيخ محمد أفندى الشافعى عفى عنه

الفقير إليه عز شأنه

السيد محمد أفندى المغربى الحسبى

المالكى عفى عنه

الفقير إليه عز شأنه

السيد الحاج محمود أبو الهدى

قاضى عكا عفا عنه

الفقير إليه عز شأنه

السيد سعد أبو الهدى الناجى

مفتى عكا عفى عنه

يستخلص من هذه الوثيقة:

أن علماء عكا استندوا فى فتواهم بدخول من يمت من مدافعيهم الجنة، ودخول من يمت من قوات محمد على النار على أن السلطان كان قد أعلن خيانة محمد للدولة، ومروقه على دين الله وعزله.

المراجع

أولا: الوثائق:

دار الوثائق القومية: محافظ عابدين، محفظة رقم ١٦٤.

ثانيا: المصادر العربية:

-ابن اياس: محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ).

-بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٢، القاهرة، مطبعة بولاق ١٣١١هـ.

-عبدالرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ١، القاهرة، المطبعة الشرفية، ١٣٢٢هـ.

ثالثا: المراجع العربية:

-أحمد عبدالرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، بيروت، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

-أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، جـ٢ – ترجمة نقولا زيادة – بيروت الأهلية للنشر، ١٩٨٨.

-أحمد فهد الشوابكة: حركة الجامعة الإسلامية، الزرقاء، الأردن، ١٩٨٤.

-أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٩.

-جلال الدين السيوطى: الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير، المجلد الثانى، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨١.

-جلال يحى: المغرب الكبير، جـ٣، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١.

-جورج أنطونيوس: يقظة العرب - ترجمة أحمد حيدر الركابى - دمشق مطبعة الترقى، د.ت.

-جورج يانج: تاريخ مصر فى عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل - ترجمة على شكرى- القاهرة ١٩٣٤.

-رأفت الشيخ: تاريخ العرب الحديث، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥.

-سيد مصطفى: الإصلاح العثمانى فى القرن الثامن عشر، نقد حالة الفن العسكرى والهندسة والعلوم فى القسطنطينية - تحقيق خالد زيادة - بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.

-عبدالعزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٠.

-عبدالعزيز نوار: الشعوب الإسلامية، بيروت، ١٩٧٣.

-عبدالكريم رافق: العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٧٤.

-عبدالمنعم الجميعى: الثورة العرابية بحوث ودراسات وثائقية، القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٢.

-كارل بروكلمان: أ-الأتراك العثمانيون وحضارتهم، بيروت، ١٩٤٩.

ب-تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أيمن ومنير البعلبكى، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

-محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٤ القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٥.

-محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، جـ١، القاهرة، مطبعة المنار، ١٣٥٠هـ.

-محمد شفيق غربال: تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، جـــــ١، القـــاهرة، النهضـــة المصرية، ١٩٥٢.

-محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٧.

-محمد عبدالمنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى، القاهرة، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.

-محمد مهرى كركوكى: رحلة مصر والسودان، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩١٤.

-مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية: قدسية الحرمين الشريفين، القـــاهرة، هجـــر للطباعة والنشر.

-نوال الصيرفى: النفوذ البرتغالى فى الخليج العربـــى، الريـــاض، دار الملـــك عبدالعزيـــز، ١٤٠٣هـــ/١٩٨٣م.

-ول ديورانت: قصة الحضارة - ترجمة عبدالحميد يونس - جـــ٤ مـــن المجلـــد الســـادس، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

Lewis, Bernard: The Emergency of Modern Turkey, London, 1968.

خامساً: المذكرات:

السلطان عبدالحميد الثانى: مذكراتى السياسية، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـــ.

سادساً: الدوريات:

١-الجوائب: العدد ١١٠٥، ١٥ سبتمبر ١٨٨٢.

٢-المجلة التاريخية المصرية: المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨.